مشكلة الأمية في مختلف أبعادها

مشكلة الأمية في مختلف أبعادها

دراسة من إعداد : د. حنفي بن عيسى
أستاذ بمعهد علم النفس وعلوم التربية
(جامعة الجزائر)

1 - تأزم مشكلة الأمية في العالم :

إن تناقص مُعدّلات الأمية في العالم، من 32،9٪ سنة 1970، الى 27،7٪ سنة 1985، يدل على نجـــاح الجهـــود التي بُذلت أوّلا : في مجال تعليم النـــاشئين. ثانيا في مجال تعليم الراشدين. . ولكن المشكلة لا تزال قائمة، لأننا إذا ضربنا صفحا عن النسب المئوية الباعثة على التفاؤل، ونظرنا الى الاميين البالغين 15 سنة او اكثر، فاننا نلاحظ ان عددهم الذي قدر بـ 760 مليون في 1970، ارتفع الى 889 مليونا في 1985، أي أن العدد المطلق من الأميين يبلغ ربع السكان الراشدين في العالم، وهذه الزيادة ناتجة بصورة مباشرة عن الفيض السكاني الذي لا ينازع احد في كونه يؤثر، بل يعرقل الجهود المبذولة، سواء في مجال تعليم الاطفال، او في مجال مكافحة الامية. والحقيقة أننا امام ثلاث ظواهر تتمثل في :

* الأمية، باعتبارها مشكلة متأزمة،
* الحالة السائدة في البلاد، من حيث درجة التطور الاجتماعي / الاقتصادي.
* الوضعية السكانية (الديمغرافية).

وهذه الظواهر الثلاث، وإن كانت تبدو مستقلة بعضها عن بعض، الا انها في نفس الوقت مترابطة ترابطا جدليا يجعل كل واحدة منها تقوم بدور السبب تارة، ودور المسبب تارة أخرى.

يعتقد بعضهم أن التعليم الشامل هو الوسيلة الفعالة لاجتثاث الامية واقتلاعها من جذورها. وهذا ما أكدته الخطط التي وضعت في كراتشي، وأديس أبابا، وسنتياجو (1960/1962)، عندما ركزت على ضرورة نشر التعليم الابتدائي على مستوى العالم اجمع، وهذا يفضي بنا الى الحديث عن الخطة الافقية.

2 ـ الاتجاه نحو التسجيل المدرسي الشامل، او الخطة الافقية.

مما يلفت النظر، أن جميع الامم تتجه حاليا نحو نفس الهدف، وهو التسجيل المدرسي الشامل لجميع الاطفال : أولا، في المرحلة الابتدائية (بالنسبة للاقطار التي لم يتحقق فيها هذا الامر بعد) . . . ثانيا، في المرحلة المتوسطة والمرحلة الثانوية، فالمسألة اذن تستحق الاهتمام، خصوصا ان المبدأ القاضي بإلزامية التعليم الابتدائي لم يوضع الا في القرن المنصرم، بل لا يطبق الا منذ بضعة عقود من السنين، ان لم يكن منذ سنوات قليلة . . . هذا، مع الاقرار بأن التعليم الاصلي (التقليدي او الديني) كان منتشرا منذ القديم، في كثير من الاقطار.

لاشك اذن أن الدول احرزت تقدما كبيرا في نشر التعليم الابتدائي، وبالأخص الشعوب التي نالت استقلالها، فأرادت ان تخرج من ظلمات الحالة التي كانت تتخبط فيها على عهد الاستعمار، الى نور العلم والمعرفة. ولكن الشيء الذي يسترعي الانتباه أكثر، أن تقدمها في نشر التعليم الثانوي والعالي، بل حتى التعليم القبمدرسي، كان أسرع، إذ كانت نسبة زيادة المعدود من الدارسين في الثانوي اعلى مما هي في الابتدائي بمقدار مرة ونصف. أما في التعليم العالي، فبمقدار مرتين ونصف، كما يتّضح الأمر من الجدول الاتي : (2).

الجدول رقم 1 : زيادة نسبة التسجيل المدرسي في مراحل التعليم (1960/1968)

التعليم العالي	+ 107٪
التعليم الثانوي	+ 65٪
التعليم القبمدرسي	+ 45٪
التعليم الابتدائي	+33٪

وبالاضافة الى هذه الجهود الكثيفة المبذولة في مجال، التعليم النظامي، ينبغي أن نضيف إليها مختلف أنواع النشاط في مجالات التعليم والتكوين والتثقيف، وكل ما استحدث من وسائل لنشر التعليم اللانظامي على أوسع نطاق عن طريق الجامعات الشعبية، ومراكز محو الامية، والدروس بالمراسلة، والحلقات الدراسية، وبرامج التدريب والترقية العمالية ودروس رفع المستوى والدورات التدريبية (أو ما يسمى في المغرب العربي «التربصات» والملتقيات الخ . . . ولكن قائمة الوسائل التي يمكن ان تحقق أهداف التربية (بالمعنى الواسع لهذه الكلمة)، لا تنحصر في ماذكرناه، إذ ينبغي أن ندخل في الحساب أيضا ما يصدر عن دور النشر والصحافة من كتب وجرائد ومجلات، وما يوجد من مكتبات ومتاحف، وما يتوفر في البلد من أجهزة تستقبل برامج البث الاذاعي والتلفزي، الخ . . .

ان هذا الاقبال المنقطع النظير على دور العلم والمعرفة له أسباب عديدة، من بينها : الفيض السكاني، والتنمية الاقتصادية، وتقدم العلوم، والتحولات الاجتماعية، والاعتبارات السياسية،

والدوافع النفسية . . . ولكل سبب من هذه الاسباب أهميته، ولكن ابعدها أثرا هي : العوامل الديمغرافية (السكانية) والعوامل الاقتصادية، والعوامل الاجتماعية، باعتبار أن العوامل الاخرى المذكورة أعلاه يمكن أن تندرج تحتها. وها نحن نستعرضها باختصار :

أ ـ العوامل الديمغرافية : من الملاحظ أن الفيض السكاني (أو التفجر الديمغرافي كما يسميه بعضهم) يؤدي بصورة حتمية الى الفيض المدرسي (أو التفجر المدرسي). ولا يخفى على أحد أن تزايد السكان في العالم أصبح اليوم موضوع نقاش حاد، بين الاجتماعيين والاقتصاديين والنفسانيين والأطباء والفلاسفة ورجال السياسة ورجال الدين، فضلا عن رجال التربية الذين يقع عليهم العبء الثقيل المتمثل في استقبال الجموع الغفيرة من المتعلمين. . ولكي يتسنى تحديد أبعاد المشكلة، سوف نتحدث عن أربع مسائل :

المسألة الاولى : إن عدد السكان في العالم قد تزايد بين 1960 و 1968، من ثلاثة مليارات تقريبا الى ثلاثة مليارات ونصف، بنسبة مئوية قدرها 17٪ خلال ثماني سنوات، أي أن معدلها السنوي قريب من 2٪.

* **المسألة الثانية** : إن عدد البالغين سن الدخول المدرسي أثناء تلك المدة (ممن تتراوح أعمارهم بين 5 و 19 سنة)، هذا العدد زاد عما كان عليه (أي 955 مليونا) حتى بلغ ما يقرب من مليار و 150 مليونا، أي بنسبة في الزيادة قدرها 20٪ خلال ثماني سنوات، فيكون معدلها السنوي 2،4٪. وبعبارة أخرى، فالزيادة في الاقبال على المدارس أعلى بحوالي 20٪ من تزايد السكان في العالم. . . هذا، ومن المتوقع أن يتزايد بأكثر من مليار، عدد البالغين سن الدخول المدرسي والجامعي خلال الاعوام الباقية من هذا القرن، أي انه، في كل سنة دراسية، سوف يزيد عدد المسجلين الجدد بحوالي 36 مليونا عما كان عليه في السنة التي قبلها.

* **المسألة الثالثة** : ان هذه الارقام لا تكشف عن واقع التربية وحقيقة الوضع السكاني في الجزء الاكبر من العالم، لانها عبارة عن معدلات لما توصّل إليه الخبراء من إحصائيات في البلدان المتطورة والبلدان النامية، علما بأن هذا الوضع السكاني، وهذا الواقع التربوي، يختلفان أشد الاختلاف بحسب مستوى التطور الاقتصادي والاجتماعي.

* **المسألة الرابعة** : إن تزايد السكان يؤدي الى الضغط على المدارس لكي تستقبل العدد الاوفر من التلامذة. ويشتد هذا الضغط الشعبيّ حينما لاتتوفر في البلد الامكانات البشرية والموارد المالية والمباني المدرسية الكفيلة باستقبال الجموع الغفيرة التي تنتظر متى يحين دورها في التسجيل المدرسي.

العوامل الاقتصادية : ان متطلبات التنمية الاقتصادية، ومشاركة عدد متزايد من الرجال والنساء في النشاط الاقتصادي المعقد، وضرورة ربط المدرسة بالمعمل، وقطاع التربية بقطاع الشغل، كل

ذلك يستلزم تكوين العاملين في حقل الانتاج وتعليمهم، سواء كانوا من الناشئين أو الراشدين. وذلك ان الانظمة الاقتصادية المتوسعة في حاجة ماسة الى عدد متزايد من العمال الاكفاء، كما ان التقدم العلمي قد غيّر المهن التقليدية، بل قضى أو كاد يقضي على بعض الحرف المتوارثة منذ أقدم العصور. . وكذلك. فقد أحدث أنواعا أخرى من الشغل، مما يستلزم توفير الوسائل التي يمكن بها تكوين الاطارات، وتجديد معلوماتها بهدف مواكبة العصر. إن كل إجراء تتخذه الدولة للنهوض باقتصاديات البلاد، يستدعي إجراء مماثلا في ميدان التربية. ويضاف الى هذا أن ظهور احتياجات جديدة في قطاع الاقتصاد الريفي الذي كان في حالة من الركود، قد أدّى الى إقبال شديد على التعليم من طرف الفتيان والراشدين، بما في ذلك الطبقات الفقيرة التي كانت محرومة أو تكاد، من التعليم النظامي.

وإذا استعرضنا التاريخ، من عهد الصنائع اليدوية الى عهد الثورة الصناعية بمعاملها العملاقة، فإننا نلاحظ أن «المشاريع الاقتصادية الكبرى مقترنة دائما بانتشار التربية والتعليم. وهذا ما تؤكده الوقائع الحالية، اذ لوحظ ان احتياجات التنمية الاقتصادية، وظهور إمكانات جديدة للشغل، من أقوى الحوافز لازدهار التربية ونموها» (3).

ان اقامة جسور الاتصال بين العمل التربوي والعمل الاقتصادي (بين المدرسة والمعمل) تلزم التمييز بين اربع حالات :

* حالة الناشئين الاميين تماما، ممن لم يسبق لهم أي اعداد للعمل المنتج،
* حالة الناشئين المنفصلين عن المدرسة قبل استكمال التعلم. وهؤلاء ليسوا على العموم أكثر كفاءة ممن ذكرناهم في الحالة الاولى،
* حالة الناشئين الذين درسوا دراسة منتظمة حتى وصلوا الى مستوى لا بأس به في التعلم، الا ان تكوينهم الدراسي لايلائم الاحتياجات الاقتصادية،
* حالة الراشدين الذين يترشحون لاعمال لم يعدوا لها الاعداد الكافي. وهنا نلاحظ أن نقصان الكفاءة المهنية مرجعه إما الى التعقد المتزايد في المهنة بسبب التقدم العلمي والصناعي، وبسبب التغيير والتجديد في أساليب العمل. . . وإمّا الى حركية الشغل، باعتبار ان الانسان أصبح في إمكانه أن ينتقل من شغل يعرفه، الى شغل آخر لا يعرفه إطلاقا، أو يعرفه معرفة ناقصة. وهذا الانتقال يحدث إما لأسباب شخصية، أو من أجل اكتساب مهارات جديدة.

وهكذا نلاحظ أن التعليم، حتى ولو توفر للفرد، لايجعله بالضرورة قادرا على أداء عمل مفيد اقتصاديا واجتماعيا. ومعنى ذلك ان التعليم كثيرا ما يكون متخلفا بالنسبة للتطور الاقتصادي، وعاجزا عن سد الحاجات الملحة في ميادين الاقتصاد والاجتماع، بحيث ان التعليم يقوم في كثيرمن الاحيان بتخريج فئات متزايدة من الافراد القاصرين، غير الاكفاء، وهذا، رغم مضاعفة النفقات لتعليمهم.

جـ العوامل الاجتماعية : إننا اليوم نعيش في عصر التحولات الاجتماعية والاقتصادية والعملية والتقنية، فليس من الممكن أن يبقى المجتمع على فطرته الاولى التي تقتصر، كما قال دور كهايم (مؤسّس علم الاجتماع في رأي بعضهم)، تقتصر على «توفير الشروط التي تضمن له البقاء». وهكذا أصبحت الشعوب في حاجة الى تربية تمكنها من مواكبة العصر.

ولكن الاهتمام المتزايد بالتربية من طرف الجهات المسؤولة يمكن تفسيره بشواغل أخرى ناتجة عن اعتبارات خاصة مدروسة. وعلى سبيل المثال، فالمشكلات التربوية في كثير من الاقطار، وخصوصا منها مشكلة محاربة الامية، تعتبر أحسن وسيلة لتعزيز الشعور الوطني وتقويته أمّا بالنسبة للاقطار التي نالت استقلالها حديثا، فإن نشر التعليم يعد شكلا من أشكال التحرر الوطني، وعنصرا أساسيا في مجرى القضاء على مخلفات الاستعمار. فالدولة التي تعمد الى تغيير بنية التربية السائدة في البلاد، تستطيع بتلك الطريقة أن تقضي على الامتيازات التي تتمتع بها بعض الفئات الاجتماعية المسيطرة، بحكم الحسب والنسب، لا بحكم الكفاءة والعلم. . كما أنها تستطيع أن تخلق الظروف الملائمة لحياة كريمة يتسنى بها لأيّ شعب، ولو كان فقيرا، أن يطمح إلى بلوغ ما بلغته الأمم الراقية في مضمار التقدم الحضاري. وذلك ان «نشدان نوعية الحياة ـ وهو جوهر التربية الحديثة ـ أخذ يفتح أمام الشعوب الفقيرة المحرومة آفاقا وامكانيات جديدة. ، فإذا اتيح لمجتمع من المجتمعات النامية أن يتعلم حسب أصول التربية الملائمة له، فسوف يسود فيه جوّ من الرخاء والانسجام والوئام، وهي أمور قد لا تتوفر حتى لدى الشعوب الراقية. وهكذا فالتربية قد تصبح من أقوى العوامل التي يمكن بواسطتها تقريب الشقّة بين الغني والفقير، وهي شقة تتسع بصورة تدعو الى القلق، كما يشهد على ذلك الدخل السنوي للفرد. واذا كانت التربية لا تستطيع في أمد قصير أن تحقق المساواة في ما يتقاضاه الافراد من رواتب شهرية، فهي تستطيع بكل تأكيد ان تساعد في تحسين معيشة الفقراء وذوي الدخل المتوسط. ان النجاح الباهر الذي حققه الانسان في اختراق أجواء الفضاء، ينبغي أن ترافقه ثورة تربوية تعود بالخير على سكان هذا الكوكب الارضي. وذلك ان التوفيق بين الجانب العلمي التقني وبين الجانب الروحي، هو من بين المهام الرئيسية التي يتكفل بها المجددون في ميدان التربية». (4)

والى جانب هذه الاسباب السياسية الداعية لتطوير التربية، ينبغي أن نضيف اليها سببا آخر يتمثل في الضغط الشعبي، عن طريق الآباء والطلبة والتلامذة المسجلين، أو من ينتظر دوره للتسجيل. وهذا الضغط الذي يمارسه الناشئون والراشدون على النظام التربوي، قد يتخذ عدة أشكال، منها : المطالبة بحق الانسان (طفلا مراهقا كهلا وشيخا) في التعليم، وتجديد المعلومات أو محو الامية. . . ومنها أيضا مناهضة الوضع التربوي الفاسد، وإعطاء هذه المسألة بعدا وطنيا بهدف تشكيل تيار سياسي معارض.

وهكذا نلاحظ ان طلب المجتمع للتربية والتعليم يتزايد باستمرار : فالتلامذة المسجلون في مستوى تعليمي معين يطمحون دائما الى بلوغ المستوى الأعلى. وبهذه الكيفية اصبح التعليم يعتبر

الوسيلة الرئيسية للانتقال من مرتبة الى أخرى في سلم المجتمع، حتى ولو كانت الآفاق التي يفتحها هي أحيانا من قبيل الوهم والخيال. وكثيرا ما تقوم الشهادات الجامعية في الاقطار النامية مقام الالقاب والامتيازات التي كانت سائدة لدى الشعوب ذات النظام الاقطاعي البائد، تلك الشعوب التي لم تندثر أصولها الاجتماعية القديمة تمام الاندثار. وهذا الامر ملحوظ اليوم في حرص بعض الاشخاص على اقتران اسمه دائما بـ (دكتور).

ولئن كانت ضرورات التنمية الاقتصادية هي التي تتحكم بالدرجة الاولى في اقبال الناس على العلم، فإن ازدياد الطلب خاضع أيضا لميقنيات (آليات) نفسية اجتماعية لها قوانينها الخاصة، بحيث أن قانون العرض والطلب المنطبق على المعاملات الاقتصادية، لاينطبق على المسائل التربوية بصورة مباشرة، أو على الاقلّ، لاينطبق عليها في المدى القريب. ولعل السبب في ذلك أن طلب العلم سلوك معقول جدا : فالانسان لا يتعلم، ولايكد ويجتهد في الدراسة من أجل الغد القريب فقط، بل يفعل ذلك استعدادا للحياة كلها، وهذه الحياة سوف تبلغ حدها الاقصى من التعقد في حوالي العام 2000. وما من انسان إلا ويعتقد ـ ولو في قرارة نفسه ـ بأن التنمية الاقتصادية سوف تتسارع، وان مجالات الشغل سوف تتضاعف، وان المؤهلات العلمية المطلوبة بالنسبة لمناصب الشغل سوف تكون أعلى مما كانت عليه. وهذا الامر من شأنه أن يخلق لدى الفرد حوافز قوية تدفعه للاستزادة من العلم، سواء كان من الناشئين او الراشدين. فهل يلام الانسان في مثل هذه الحالة، اذا اعتقد بأنه أصبح من حقّه، أو على الأقلّ من حقّ أبنائه، أن يطمح الى حياة كريمة؟

وهكذا يتبين أن الآباء لا يرضون أن يحرم أبناؤهم من الثقافة التي يتطلبها القطاع الاقتصادي، حتى ولو كانت مجالات الشغل فيه محدودة. وبما أن السلطة السياسية تأخذ دائما بعين الاعتبار رغبات الآباء ومطامحهم، فالنتيجة المترتبة على ذلك ان السياسة تمارس نوعا من الضغط على التربية لكي تقوم بتخريج ذوي الكفاءات، حتى ولو كانت مناصب الشغل غير مضمونة لهم. ان هذه الآمال المبنية أحيانا على الوهم والخيال، وما ينجم عنها من خيبة، لها على الاقلّ حسنة قد تشفع بتلك، من حيث أنها تجعل الآباء يتفطّنون لسيئات النظام التربوي ونقائصه، فيدفعهم ذلك الى الاحتجاج، وخلق جوّ انتقادي في الرأي العامّ، ممّا قد يكون له أحسن الأثر في تعديل الوضع التربوي بما هو أفضل.

إن هذه الأسباب كلّها تَجْعَلُنا ندرك لماذا كان طلبُ العلم منقطعَ النظير، سواء من طرف الناشئين أو الراشدين، ولماذا كان ضغطه شديدا في جميع مراحل التعليم، وعلى اختلاف أنواع التعليم.

3 ـ فشل الخطة الافقية، أو التسجيل المدرسي الشامل

ولكن، رغم الجهود الجبارة التي بذلتها الشعوب، وبالاخص البلدان النامية، من أجل

النهوض بالتربية على أوسع نطاق، فإن نشر التعليم مع ذلك يصطدم بعقبات لا يمكن التغلب عليها بسهولة، وخصوصا العقبات المتمثلة في قلة الامكانات البشرية والوسائل المادية والموارد المالية. . . وهكذا، ففي عام 1985، جرم من الدخول الى المدرسة ما لايقل عن 116 مليون من الاطفال المتراوحة أعمارهم بين 6 و11 سنة، علما بأن حصّة البلدان النامية من هذا العدد تبلغ 107 ملايين، وبذلك تنضمّ هذه الأفواج الجديدة من الاطفال الى الجموع الغفيرة من الاميّين الراشدين. وفضلا عن ذلك، فإن قصر مدة بقاء التلاميذ في المدارس لا يزال من المشاكل المحيرة لذوي الحل والعقد، باعتبار ان الكثير من الاطفال لا يستكملون مرحلة التعليم الابتدائي ومن الثابت ان الذين كانت دراستهم مختصرة من حيث المدة، أو ناقصة من حيث النوعية، هؤلاء سرعان ما يقعون مرة أخرى في الامية، وبالاخصّ إذا كانوا يعيشون في محيط أمي. وهذا لا يعني ان البلدان التي اسعدها الحظ بتوفر التعليم الابتدائي واحيانا الثانوي فيها، قد سلمت من هذه الظاهرة: فالاميون في هذه البلدان كثيرون، لأسباب مختلفة، وان كانوا لا يمثّلون سوى نسبة مئوية ضيئلة من عدد السكان (20 مليون عام 1985 في مجموع البلدان المصنّعة، أي 21٪ من مجموع السكان الراشدين الذين تزيد أعمارهم على 15 سنة). ولكن المشكلة الخطيرة التي تواجهها هذه البلدان المصنعة هي مشكلة الامية الوظيفية التي تسمى: الجاهلية Illétrisme (5) ومن المفارقات العجيبة ان يكون فشل الخطة الافقية راجعا الى الاولوية المعطاة للنهوض بالتعليم النظامي (المدرسي والجامعي): فقد كان لها اثر سلبي في العديد من الحالات، بالنسبة لحق الناس (صبيانا، شبانا وشيبا) في التعلم، مع أن هدف التربية من حيث الاساس هو تمكين جميع الناس من هذا الحق.

وبالفعل، فالعديد من وزراء التربية في العالم، انصبّ اهتمامهم بالكامل على مشكلات تعليم الناشئين، حتى أصبحوا «وزراء المدارس» لا أكثر ولا أقل، فتنصلوا من المسؤولية فيما يخص الجموع الغفيرة ممن حرموا من التعليم في الصغر، أو تركوا الدراسة قبل ان يحصلوا من المعرفة على الزاد الكافي. واذا استثنينا بعض الحالات التي تستحق التنويه، فإن الجهود المبذولة لصالح هذه المجموعات الكبرى من السكان، تعوزها الرغبة الصادقة والعزم الاكيد على إنجاح خطة تعليم الراشدين. وما علينا الا ان ننظر للحصة المخصصة للتعليم اللانظامي من ميزانية وزارة التربية، لكي نتأكد بأنها حصة ضئيلة للغاية.

ويرى بعض خبراء اليونسكو أن تكثيف الجهود من طرف الدول النامية، على النهوض بالتعليم النظامي وحده، يكلف تلك الدول أموالا طائلة، بالتالي، فمثل هذا النظام لا يلائم الاوضاع الاقتصادية السائدة فيها. وذلك أن نشر التعليم من حيث الكم (على حساب الكيف)، اقترن به تدهور ملحوظ في النظام التربوي: فالفرق الكبير بين المستوى التعليمي المنشود والمستوى الناجز، يرجع في أكثر الاحيان الى الغلو في الاهتمام بنوع معين من التعليم، على حساب الانواع الاخرى. وهذه النظرة الخاطئة كثيرا ما تؤدّي الى بذل جهود باهظة التكاليف، وغير مجدية، من أجل رفع مستوى التعليم الذي لم يبق منه سوى الاسم، بل هو أقرب الى التجهيل منه الى التعليم، باعتبار أنه لا يناسب الزمان ولا المكان.

ان انحـراف النظام التربوي عن هدفه الأصلي (وهو رفع الامية نهائيا عن الانسان واستئصال جذورهـا مع حلول القرن الحادي والعشرين)، هذا الانحراف يمكن أن يلاحظ لدى إجراء دراسة تقييمية للنتائج المحصل عليها في كل مرحلة من مراحل التعليم. وعندئذ سوف نشاهد أمرا غريبا حقا، وهو أن التعليم الابتدائي في بعض البلدان، وظيفته الرئيسية هي تخريج اطفال ليس لهم من مصير سوى العودة مرة ثانية الى حالة الامية. ووظيفته، الاخرى هي تمكين بعض الاطفال من القراءة والكتابة والحساب، وهي مهارات لن يستفيدوا منها بالقدر الكافي، اللهم الا اذا كانوا من تلك القلة القليلة التي تنتقل الى الثانوي. ولكن المدرسة الثانوية بدورها ليس لها من وظيفة في معظم البلدان النامية سوى تلقين المسجّلين فيها خلال سنتين او ثلاث سنوات، تلقين هؤلاء مباديء العلوم، وخليط من المواد الدراسة التي لن يستمروا في تلقّيها الى النهاية، ولن يدركوا لها على أية حال أي معنى أو مغزى في الحياة.

ولئن صحّ أن الدول أحرزت تقدّما كبيرا في نشر التعليم بمختلف مراحله (كما رأينا ذلك في الجدول رقم 1)، فينبغي مع ذلك أن نشير الى أن الارقام كثيرا ما توقع في الخطأ، من حيث أنها توهم بأن الوضع يتحسّن، في حين أنه على العكس، يتردى. فمن جهة، نلاحظ ان الاطفال الـذين تتراوح أعـمارهم بين 5 و14 سنة من غير أن يدخلوا المدرسة، زاد عددهم بين 1960 و1968 من الناحية الكمية المحضة بمقدار 17 مليونا، ومعنى ذلك أن الاطفال المحرومين من حقّ التعليم يزيد عددهم سنويا بحوالي مليونين... ومن جهة أخرى، فالاحصائيات العالمية توقع في الوهم والخطأ.. أولا، لأن بعض الدول تقدّم أرقاما مغلوطة عن تفشّي الامية فيها، وذلك لأسباب سياسية و لايهام الرأي العام العالمي بأنها جادة كل الجد في محاربة الامية... ثانيا، لأن الاحصائيات العالمية تخلط المعطيات بعضها ببعض، من غير تمييز بين مختلف المناطق من العالم، حيث تتفاوت الجهود المبذولة للقضاء على الامية.

واذا افترضنا أن نسبة النمو السكاني، ونسبة التسجيل المدرسي، سوف يتطور كل منهما على غرار تطورهما في السبعينات، فإنه يترتب على ذلك أن عدد الاطفال المتراوحة أعمارهم بين 5 و14 سنة، والذين لم يجدوا مكانا في المدرسة عام 1980، هذا العدد من الاطفال يبلغ حوالي 230 مليونا.

4 ـ تفشّي الأميـــة في العـالم

لن تكون الصورة واضحة عن الوضع التربوي في العالم الا اذا اطّلعنا على الاحصائيات المتعلقة بتفشي الامية بين الراشدين في العالم، وهي كما يلي :

الجـــــدول رقم 2

عدد الراشدين في العالم (اكثر من 15 سنة)	المجموع (بالملايين)	المتعلمون (بالملايين)	الاميون (بالملايين)	نسبة الأمية ٪
1950، بالتقريب	1579	879	700	44،3
1960، بالتقريب	1869	1134	735	39،3
1970، بالتقريب	2287	1504	783	34،2

تطور أحوال الامية في العالم (6)

ويلاحظ ان **النسبة المئوية** للأمية نقصت، إلا أن **عدد** الاميّين ظل يتزايد. وهذه النتيجة الداعية لليأس في أول وهلة، تشتمل مع ذلك على عنصر إيجابي، وهو أنه كان من الممكن نظريا ان يرتفع عدد الاميين الى 810 ملايين عام 1970 ، لو ان جهود محو الامية بقيت على ما كانت عليه منذ 1950 . وبما ان تلك الجهود تضاعفت اعتبارا من ذلك التاريخ، فإن عددهم أقل من الرقم السابق بسبعة وعشرين مليونا، وفي هذا دليل على أن الامية في العالم وصلت لأول مرة الى نقطة التحول في تطورها : من التصاعد الى التناقص.

ولكن.. لا ينبغي أن نتصور بعد هذا ان الوضعية بالنسبة الى الامية تتحسّن في جميع المناطق الشاسعة من العالم الثالث، هذا من جهة.. ومن جهة أخرى، فلا ينبغي أن ننخدع بالاحصائيات العالمية، لأن تلك الارقام التي تشمل العالم كله، تصبح أضعف تعبيرا عن واقع الامية كلما قطعت البلدان الصناعية أشواطا بعيدة في الفضاء على آخر ما تبقّى فيها من مراتع الجهل وبؤر الأمية. ويُستفاد من الاحصائيات المتعلقة بعام 1970 ، أن رَجُلاً واحدا من اربعة رجال (ممن تزيد اعمارهم على 15 سنة) يعرفون القراءة والكتابة في افريقيا والاقطار العربية، وأن عددًا من يحسنون القراءة والكتابة من بين الكبار في آسيا لايكاد يزيد على نصف السكان.. ويستفاد منها أيضا أنه يوجد 40 مليون من الاميين في أمريكا اللاتينية، و50 مليونا في الاقطار العربية، و143 مليونا في افريقيا، وأكثر من نصف مليار في آسيا.

وهكذا فإذا صح تقدير عدد الراشدين في العالم بمليارين و823 مليونا في أواخر السبعين

وافترضنا ان المتعلمين منهم ازداد عددهم بمقدار 500 مليون؛ فمن الممكن ان نستخلص بأنه قد بقي عام 1980 على خالة من الامية ما لايقلّ عن 820 مليونا من الراشدين، وبذلك تبلغ النسبة المئوية العالمية للامية 29٪.

ولكن هذه النسبة المئوية تخفي وراءها فوارق ضخمة بين مختلف مناطق المعمورة، وبين بلدان نفس المنطقة، وداخل البلد الواحد، بين المناطق الريفية والمناطق الحضرية، بين الرجال والنساء. وتدل أحدث الاحصائيات (الخاصة بالثمانينات) أن الاغلبية العظمى من الاميين يوجدون في آسيا، وبالاخصّ في شبه القارة الهندية (666 مليونا في 1985، أي ثلاثة أرباع المجموع). أما في افريقيا، وبالاخصّ افريقيا الغربية، ففيها توجد أعلى معدلات الامية: فمن بين البلدان الاثنين والثلاثين، التي كان معدّل الامية فيها عام 1985 أعلى من 50٪، فإن اثنين وعشرين من تلك البلدان توجد في افريقيا، وسبعة منها في آسيا.. والفئة السكانية الاكثر تضرّرا من هذه الآفة هي فئة النساء، حيث تبلغ النسبة المئوية 60٪ من مجموع الاميين. ويبلغ معدل الامية بين الاناث على المستوى العالمي 9، 34٪، ويرتفع الى 9، 48٪ في البلدان النامية، ويصل الى 4، 78٪ في البلدان الاقل تقدما، بل يتجاوز 90٪ في اثني عشر بلدا.

وقد لوحظ في سائر المناطق من العالم ان الجماعات التي تعاني من الامية هي الطبقات الفقيرة، كما لو أن الفقر والأمية صنوان متلازمان، علما بأن الثلثين من سكان العالم يعيشون فيها. على أنه تجدر الاشارة الى ان الاولوية التي اعطتها بعض الدول (أحيانا) للنهوض بالارياف، أفضت الى نسيان وإهمال السكان المتواجدين في المناطق الهامشية بالقرب من المدن الكبرى، وهذه الظاهرة ملحوظة حتى في البلدان المصنعة، حيث توجد مناطق حضرية يعاني سكانها من الفقر والضنك في المعيشة والحرمان من وسائل الثقافة. وأكثر من يتعرض بينهم للامية هم الشبان البطالون. وأخيرا لابد من ذكر فئات أخرى محرومة هي أيضا من العلم والمعرفة، وهم العمال المغتربون وأفراد عائلاتهم، والاقليات العرقانية أو الثقافية، والبدو الرحّل، واللاجئون، والاناث... بكلمة مختصرة، كل من هو محروم من نعمة القراءة والكتابة، لانّهم يعيشون على الهامش، أو لان المجتمع رفضهم لاعتبارات تتعلق بالجنس، او العرق، او اللون، او العجز البدني، او المرتبة الاجتماعية/الاقتصادية او الانتماء الى ثقافة معينة.

ولابد من كلمة أخيرة نخصصها لما يسمّى (حملات محو الامية): فمعظم هذه الحملات مفتقرة للاستمرارية والمتابعة والجد في العبل وإحكام الخطّة من أجل استئصال جذور الامية نهائيا. وعلى العموم، فالحملات التي استطاعت ان تحقق الاهداف المرسومة لها قليلة جدا. والحقيقة ان الغرض من تلك الحملات ليس هو الالفبة والمقارءة او الاقراء (اي تمكينه من مباديء القراءة والكتابة ليس الا..)، بل ينبغي ان يتركز على تمكينه من الاندماج في المحيط والتخلص من الجهالة، والخروج من الاوهام، والبعد عن الخرافات والخزعبلات، والسعي به لكي يرجع دوما الى الواقع ويثبت شخصيته. وعندئذ سوف ينطلق من تلقاء ذاته لكي يحصل على المعلومات التي تعود عليه بالنفع، ولكي يكتسب الصنائع والمهارات التي سوف تحسن ظروف معيشته. وتجدر

الاشارة هنا الى ان الحركة الثقافية التي قادها رائد النهضة الجزائرية المرحوم الشيخ عبد الحميد بن باديس، كانت، رغم ضعف الامكانات البشرية والمادية، ورغم مضايقات الاستعمار لها، كانت أنجح من الحملات التي تنظم حاليا، وتعقد لها الندوات ويجلب لها الخبراء، إنّ الاسلوب الذي اتبعه ابن باديس وصحبه بسيط للغاية. ويتلخص في ما يلي :

— استغلال العامل النفسي، وذلك بالضرب على الوتر الحساس المتمثل في الشعور الديني والوطني. (الجزائر وطننا والعربية لغتنا، والاسلام ديننا).
— رفع بعض الشعارات المستمدّة من الكتاب والسنّة ومن السلف الصالح (العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، اطلب العلم ولو في الصين، اللغة العربية مقدسة ولن يزيلها الاستعمار، لانها لغة القرآن).
— التفطّن لامكانية تعليم الراشدين عن طريق المشافهة والمكالمة والمجالسة، أي مجالسة العلماء، والاستماع الى خطبهم. وهذه الطريقة تعتبر من التقاليد القديمة المميزة للحضارات ازدهرت في حوض البحر الأبيض.. وكم عن أميين في الثلاثينات والأربعينات أصبحت لغتهم راقية، وزالت عنهم العقلية الخرافية، واستنارت بصائرهم (7) وذلك لا لشيء سوى لانهم كانوا يجالسون العلماء.

ولهذا كله، نقول بأننا اذا قارنا اليوم بين ما يبذل من جهود وما يصرف من أموال في تنظيم حملات محو الامية، وبين الآمال المعقودة عليها في كثير من الاقطار وبين النتائج الضعيفة المحصّلة منها، وما يترتب عليها من أنواع الضجر والنفور واليأس أحيانا من بلوغ الغاية المنشودة.. وإذا اعتبرنا كذلك ان الدول، حرصا منها على سمعة البلاد في الخارج، ومراعاة للمقتضيات السياسية، تلك الدول تعمد بين الحين والآخر الى نشر بيانات تشيد فيها بما أنجزته في هذا المضمار، مع أنها ليست منجزات إلا على الورق... فانه لا يَسَعُنا حينئذ الا ان نهيب بالمسؤولين للاستفادة من تجارب الدول الاخرى، واستخلاص العبر منها، لكي نتفادى في المستقبل، العقبات التي تؤدي بالخطة، مهما كانت محكمة في المجال النظري، الى الفشل الذريع في المجال العلمي.

الهوامش :

1) انظر: Ali Hamadache et Daniel Martin · Théorie et pratique de l'alphabétisation, UNESCO-UCED. 1988; p. 1 et 2

2) انظر : «تعلم لتكون» تأليف ايدجار فور، وفئة من خبراء اليونسكو، ترجمة حنفي بن عيسى، الجزائر، 1973، ص 82.

3) انظر المصدر السابق صفحة 73.

4) انظر: Prem Kripal ;«Modernisation of education in South ASIA. The search for quality», in, Revue internationale de pédagogie, N. 17/1971/2.

5) هناك مصطلحات كثيرة تستعمل في هذا السياق، وهي متداولة في مختلف الازمان والبلدان، ولكنها ليست مترادفة تمام الترادف. وهذه المصطلحات هي : الجهل (ignorance) والجهالة (obscurantisme) والجاهلية (paganisme، illétrisme) والامية (anal-phabétisme) وهناك مصطلح يستعمل في الفرنسية للدلالة على العميلة التي بها يتم القضاء هلى هذه الظواهر السلبية وهي -alphab. étisation ويقترح بعضهم عبارات (محو الامية)، (مكافحة الامية)، محاربة الامية). . ولكن هذه العبارات لا تطابق المطلح الفرنسي، لانها تعنى القضاء نهائيا على الامية اي استئصالها واجتثاثها، كما تعني الجهود المبذولة لبلوغ هذه الغاية. . . ولذلك اقترح بعضهم عبارة (تعليم الاميين)، او مصطلح (الالفبة). ومن الواضح بالنسبة لهذه الكلمة انها وضعت عن طريق القولبة لانها مشاكلة لنظيرتها في الفرنسية alphabétisation وأرجو ان لا ينزعج احد من اقتراحي لمصطلح آخر هو (المقارءة او الاقراء)، وهو مستمد من قوله تعالى : (سنقرئك فلا تنسى. .) أليس القرآن (من الفعل قرأ) هو الكتاب المنزل الذي أمرنا الله أن نقرأه؟ أليس الفرقان (من : فرق) هو الكتاب الذي به نفرق بين الحق والباطل؟ ومعنى ذلك ان فلسفة الاسلام تتخلص اولا : في سلوك يقوم على قراءة الآيات البيّنات، اي فك الرموز التي تحفل بها الحياة. ثانيا في عقل يوجه ذلك السلوك ويقومه، ويعصمه من الخطأ. ونظرا لأهمية العقل في الحياة، فقد كثرت العبارات الدالة عليه : (الذهن الحجر، الحجا، النهية، الروع، الخلد، الخلد، البال، اللب، الفؤاد البصيرة، الحلم).

16 انظر : «تعلم لتكون»، مصدر مذكور، ص 84.

7) البصائر، هو اسم الجريدة الناطقة باسم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إبان الاحتلال.